تعظيم الله وتقديره حق قدره

سؤال: ما الرسائل التي تحملها وتنقلها إلى الناس الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الزُّمَر: ٦٧/٣٩)؟

الجواب: إن عبارة "وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْره" الواردة في صدر الآية تعني: أنهم ما عرفوا الله تعالى حقَّ معرفته مستجمعينَ صفات جلاله وجماله، وما عظَّموه حقَّ تعظيمه؛ إذ تجاهلوا قدرتَهُ المطلقة الغالبة على كل شيء، ورحمتَه وشفقتَه الأبدية، ونِعَمَهُ وألطافَهُ التي أَنْزَلَها على عباده، فلم يُعَظِّموه بما يليقُ به وبشأنه العظيم سبحانه؛ ولذلك فقد انزلَقُوا في مستنقعِ إنكارِ الجميلِ وعدم تقديرِ الجليلِ.

ومن عبارة "حَقَّ قَدْره" نفهم أنه وإن كان بين هؤلاء الناس من قدَّره وعظَّمه ﷻ بقدرٍ معين إلا أنهم لم يقدروا ذا الجلال والكمال بالشكل الذي يستحقُّه ويليقُ بذاته العليّة؛ فثمّة فرقٌ بين "مجرد التقدير" و"التقدير بحقٍّ"؛ فالله تعالى هو من خلَقَنَا، وجعلنا في أحسن تقويم، ودعانا إلى الصراط المستقيم بواسطة الرسل والأنبياء وهدانا إليه، وحَفّزَ هِمَمَنا بما وعدنا به من خيرٍ جزيلٍ، ووجَّه أبصارنا إلى دار القرار، ولم يكِلْنَا إلى أنفسنا طرفةَ عين، ومعرفةُ كل هذه الأمور

واحترامُـه تعالى وشـكره بنـاءً على هذا العلم يمثـل تقديرًا من العبد لربه ﷻ، وأما خلاف ذلك فهو عمى وكفر للنعمة وعدم تقدير.

وتَضـربُ الذاتُ الإلهيّة مَثلًا على عظمتها وجلالها بقوله تعالى: "وَالْأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"؛ أي إن الدنيا تبدو نقطةً صغيرة وشـيئًا تافهًـا بالنسـبة لقـدرة الحـقِّ تعالى أيًّـا كان حجمُ هـذه الدنيا وجسـامتُها في نظركم، وتعبير الآية عن قدرته سـبحانه على الأرض إنّما يُقدِّم لمن يعيشـون فيها رسـالةً مفادُها أنْ: "اخضعوا أمام قدرته القاهرة وإرادته الباهرةِ، وتحركوا في دائرة الأمر والطاعة".

وتخبرنـا الآيةُ بعبارةِ "وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّـاتٌ بِيَمِينه" الواردةِ قبل خِتامهـا أنه ﷻ سـيطوي السـماوات كطَيِّ السِّـجلِّ للكتب؛ فيجعلها مطويّة كالورقِ الملفوف.

أما عبارة "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" التي تُشَكِّلُ فذلكة الآية فتعني أنَّ الله مُنَزَّهٌ ومُبَرَّأٌ عما يشركُونه به هؤلاء.

بُعْدَا الخشية: المعرفي والوجداني

ثمـة درجـاتٌ مختلفةٌ لتقديرِ الله تعالى وإجلاله تتفاوتُ بحسـب مدى التعمُّقِ أو السـطحيّة في الشـعور بقدرة الله وعظمته في الكون، ودرجةِ الإحساس بما يغمرنا به من نِعَمٍ وألطاف.

وقـد يتبادرُ إلى الذِّهْنِ هنا هذا السـؤال: "هـل هذا التقدير مجرّد معرفـة، أم أنه يشـمل كل أعضاء الإنسـان بما فيه مـن لطائف؟" كما أن المحبـة تتشـكَّلُ وتنمـو في أحضـانِ المعرفة؛ فإن الحـب مرتبطٌ بالعِلـم؛ والأمـر هكـذا تمامًـا إنْ تكـوَّنَ في القلبِ شـعورٌ بالخشـية

أي شعورٌ بالخوف أساسُهُ ومحورُهُ احترامُ الله وتعظيمُه تعالى؛ فمثلُ هذا الشعور يقف وراءه العِلم بالدرجة الأولى، ومن ثم فربما يتحوَّل العلـم إلى معرفـةٍ وثقافةٍ وجدانيّة، ثم إلى طبيعة في الإنسـان وعمقًا من أعماق طبيعته نتيجةً لذلك، والطاعات التي سيؤدِّيها المؤمنُ بعد هذه المرتبةِ تُصْبِحُ أحداثًا تتشكَّلُ بِفِعْلِ ما فيه من دوافـع داخليّة، أي إن قول الإنسـان: "سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْده سُـبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، اَللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلهِ كَثِيرًا وَسُـبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" على سبيل المثال لن يكون لمجرد أنه أُمر ووُصِّي بقول هذا فحسـب، بالعكس سـوف تنبـعُ مـن داخله هذه العبـارات التقديريّة والتعظيمية مباشـرةً حالَمَا يفيـضُ قلبُهُ جَيَاشًـا فائقًا بتدبُّرِ الأشـياء والحـوادث، ومطالعة القدرة القاهرةِ والإرادة الباهرة؛ فيسمو سُمُوًّا يفوقُ شعوره بالامتثالِ للأمرِ.

ومـن هذه الناحية يتسـنَّى القـولُ إنه يمكن للمؤمـن أن يُعَبِّرَ عن مشـاعرِ تقديره للقدرةِ القاهرةِ والإرادةِ الباهرةِ والمشـيئةِ السـبحانية نظريًّا، غير أن حقيقةَ المسـألةِ تكمُنُ في تحويله هذا التقدير إلى بُعدٍ داخليّ، وجعله جزءًا من طبيعته، وإلا فإنّه سَيُعَبِّرُ عن مشاعر التقديرِ والتعظيمِ لِمُجَرَّدِ أنه أُمِرَ بهذا فحسب، أو حينما وحيثما يُذكَّرُ بذلك، وأما القلوبُ المؤمنة التي شَكَّلَتْ مَعْسَلَةَ المعرفة في وجدانها بالتفكُّرِ والتدبُّر هي تلك التي تمتلِئُ وتفيضُ بأحاسيسِ التعظيمِ والتقديرِ في كلِّ مرحلـةٍ مـن مراحـل حياتها، بـل وفي كل فينةٍ مـن حياة بعضها، فمثـلًا حيـن يواجه حادثة ما يرى فيها تجلـي القدرة والعظمة الإلهية يقـول متأثـرًا بها: "سُـبْحَانَ اللهِ"، وحيـن يرى أنه قد غُمِـرَ بالنعم من مفـرق رأسـه إلى أخمـص قدميه يُردِف مـن فوره قائـلًا: "الْحَمْدُ لله حَمْـدًا كَثِيـرًا"، ويفيض حمدًا لله تعالى وثناءً عليه، وحين تتراءى أمام

ناظريه تلك الإجراءات العظيمة الجسيمة التي تدلُّ على عَظَمَةِ الله تعالى وجلاله يلهجُ بذكر الله وتعظيمه قائلًا: "اَللهُ أَكْبَرُ".

وكما قال "رجائي زاده محمود أكرم":

الكون كُلُّه كتابُ الله الأعظمُ

فإذا تصفَّحْتَ أيَّ حرفٍ منه وجدتَ الله الأكرم

أي إن أيَّ حرفٍ يعرضُ للمؤمِنِ يُعَبِّرُ له عن الله تعالى بما يَليقُ بِعَظَمَته وجلاله، وذلك هو التقديرُ الحقيقيُّ، والمهمُّ هنا هو أن يجعلَ الإنسانُ تقديره لله تعالى مسألةً وجدانيّةً فطريّةً فيه.

تأثيرُ الخشيةِ على الفردِ ومحيطه

ثمة حديثٌ نبويٌّ شريفٌ من شأنه أن يُسَلِّطَ الضوءَ على هذا الموضوع، ألا وهو قول مفخرة الإنسانية ﷺ حين رأى من يعبثُ بِلِحْيَته في أثناء صلاته: "**لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هذا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**"[٤١]، فإن كان قلبُ الإنسان عامرًا بشعور الخشية من الله واحترامه حقَّ الاحترام سَرَى هذا في كلّ تصرُّفاته وسلوكيّاته حتى إنه يهيمن على كلِّ إيماءاته وإشاراته.

وهكذا فإننا حين ننظرُ إلى تصرُّفات وحركات وسكنات الأشخاص العظام من أصحاب القلوب العامرة بالخشية والتقدير فإننا نشعرُ ونُحِسُّ بأمارات وانعكاساتِ خشيَتِهم لله تعالى؛ وإذا ما خالَطْنَاهم اصطبَغْنَا بِصِبْغَتهم وحظينا بالسكينةِ والطُّمأْنينةِ؛ فقد عِشتُ تلك المشاعر والأحاسيس التي تشرح صدر الإنسان حين كنت

(٤١) عبد الرازق: **المصنف**، ٢٦٦/٢؛ ابن أبي شيبة: **المصنّف**، ٨٦/٢؛ البيهقي: **السنن الكبرى**، ٤٠٤/٢.

أَشرُف بالوجود في حضرة الشيخ "محمد لطفي أفندي"؛ فهولاء الأشخاص العظام حين يذكرون الله ﷻ والرسولَ ﷺ أو يتصرَّفون بحساسيّة في شتى المواضيع يبثُّون فيكم من الإيمان والإذعان ما تعجزُ الكتب أن تُعبِّرَ عنه، وحالُ الشيخ محمد لطفي أفندي كان خيرَ مثالٍ لهذا؛ فذات يوم حضر إليه أحدهم وقال: "سيدي الشيخ! حَجَجْتُ، فوجدت أن الكلاب التي في المدينة المنورة قد أصابها -من الإهمال أو من غيره- الجَرَبُ!!" فلما سمع الشيخُ هذا القولَ انتفضَ قائلًا: "اُسكُتْ! فالمدينةُ روحي فداها، بل وحتى فِدى كلابِها الجَرِبة!"، ولا بدَّ أنَّ ما دفعَ فضيلةَ الشيخ لقولِ تلك الكلمات هو تَرَبُّعُ حبّه العميقِ واحترامُه الجمّ لمفخرةِ الإنسانية ﷺ على عرشِ قلبه، فعبَّرَ الشيخ من فَوره عن هذه الحساسيّة، وهكذا فإن المسألةَ الحقيقيّة الجوهريّة هي إسلامُ المرء نفسَهُ لشلَّالٍ من الخشوع والخشية بحساسيّة عميقةٍ تجاهَ القِيَمِ المقدّسة، وتوجُّهَه إلى حيث يذهبُ به ذلك الشلال.

قيمةٌ مهمّة افتقدناها

مما يؤسف له أنَّ غرسَ هذه الأمور في الوجدان هو من أهمّ القِيَمِ التي افتقدناها؛ فقد افتَقَدْنَا نحن -ضحايا الإسلام الشكلي- قلوبَنَا، ونَسِينَا ديناميكيَّاتنا الداخلية، ومع أن بعضًا من القِيَمِ المنسوبة إلى الدين قد لُقّنتْ للأجيال -نسأل الله أن يرضى عمَّن فعل ذلك- إلا أنّنا اكتفينا بالمعلومات النظريّة والتقليديّة والنقلِ فحسب دون أن نتمكّنَ من تعلُّمِ القِيَمِ الخاصّة بحياة القلب والروح، ومن ثمَّ لم يتسنَّ لنا أن نعيشها ونحياها، وكما ورد في قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٨-٨٩)، وقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (سورة البَيِّنَةِ: ٨/٩٨)؛ فإن امتلاك الإنسان "قلبًا سليمًا" ينقذُهُ في الدار الآخرة إنما يتحقق باحترامه اللهَ ربَّه وخشيته منه ﷻ.

وإن عدم تأثُّرِ قلوبِنا بتلك الآية التي تُزَلْزِلُ المنابرَ والمحاريبَ إنّما هو تعبيرٌ وأمارةٌ أخرى على حالنا الذي يدعو إلى الحسرةِ والندامة؛ فذات يوم تلا رسول الله ﷺ على منبره الشريف الآيةَ الواردة في هذا السؤال -الذي يشكل أساسَ موضوعِنا-؛ فتحرَّكَ المنبرُ تحته ﷺ حتى كاد يُسْقِطُهُ ﷺ من فوقه، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، يُقبِل بها ويُدبِر ثم قال: "**يَأْخُذُ اللهُ** ﷻ **سَمَاوَاته وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا الْمَلِكُ**"، يقول سيدنا عبد الله بن عمر راوي الحديث: نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟![٤٢].

ولو أننا لم نفقدْ قلوبَنا وأحاسيسَنا لأَرْجَفَتْها هذه الآيةُ الجليلةُ التي هزَّتْ المنْبَرَ النبويَّ، ودفعَتْنَا إلى الخشيةِ.

فندعو الله تعالى أن يوفِّقَنا إلى النجاةِ من الشكليّة والسطحيّة، ويمكِّننا من النفوذ إلى الجوهر، وينقلنا من القالب إلى المعنى، وأن يملأ قلوبنا بشعورِ الخشيةِ حتى تُسيطِرَ وتسودَ في كلِّ تصرُّفاتنا وسلوكيّاتنا مدى الحياة! اللَّهم آمين.

---

(٤٢) صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٢٥؛ مسند الإمام أحمد، ٩/٣٠٤.